.ا.د. محمود إسماعيل

رائد من رواد الحركة الفكرية الحديثة

د. طارق منصور* – د. محمد نصر*

جامعة عين شمس–مصر

يعود بنا الزمان سنوات وسنوات إلى الوراء عندما كنا طلابا في قسم التاريخ، وعالمنا الجليل يجلس على منصة المحاضر مسترسلا في الشرح، محملقا في السماء وكأنه يستقريء ما في الغيب؛ وما بين نظراته هنا وهناك كنا نتابعه بشغف شديد، فقد كان يشدنا نحوه بتفسيراته وتحليلاته غير النمطية لأحداث التاريخ. ولم نكن وقتها ندري من هو محمود إسماعيل المؤرخ والمفكر.

وتمر الأيام والسنون، ولم نكن ندري أن القدر خبأ لنا ما لم نكن نحلم به، فقد أصبح التلاميذ زملاء لسيادته بقسم التاريخ بآداب عين شمس، ولم تنس غالبيتنا أننا كنا تلاميذاً له. وإزاء أزمة الأخلاق التي يمر بها المجتمع الجامعي الآن فقد رأى بعضا من تلامذته الأوفياء أن من واجبهم الوفاء لهذا العالم المتواضع، الذي ما أن طرق بابه سائلا ما حتى عاد مقضي الحاجة، والذي انتشر تلاميذه في مصر والمغرب والجزائر والكويت وغيرها من الدول العربية.

من هو محمود إسماعيل؟

ولد محمود إسماعيل عبد الرازق عام ١٩٤٠م في قرية الطويلة، إحدى قرى محافظة الدقهلية، وهي واحدة من محافظات مصر الوَلاَّدة التي أنجبت قبله على باشا مبارك، أحمد لطفي السيد، أنيس منصور، أم كلثوم، عبد العزيز شرف وغيرهم كثر. هناك تلقى تعليمه الأولي بمدارسها، حتى التحق بكلية الآداب، جامعة القاهرة ، فتخرج منها عام١٩٦٢م. وبعد انتهاء المرحلة الجامعية الأولى استكمل دراساته العليا حيث حصل على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية الآداب جامعة القاهرة عام١٩٦٧م بتقدير عام ممتاز وكان موضوع رسالته" الأغالبة، سياستهم الخارجية "؛ ثم حصل على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من كلية الآداب جامعة القاهرة عام١٩٧٠م بتقدير عام مرتبة الشرف الأولى في رسالة بعنوان" الخوراج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ".

---

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

* مدرس التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

تجدر الإشارة إلى أن ا.د. محمود إسماعيل عمل مدرسا بكلية الآداب جامعة عين شمس في عام ١٩٧١م ، ثم أستاذا مساعدا عام ١٩٧٧م ، ثم أستاذا عام ١٩٨٤م . بيد أن رغبته في تحرير فكره من القيود الرسمية التي فرضها واقع مصر في أواخر السبعينيات جعلت سيادته يصبح من الطيور المهاجرة لينأى بفكره عن "المطبات" السياسية التي كان يتعثر فيها مثقفو مصر الحديثة في تلك الفترة، فسافر إلى المملكة المغربية ليقضي بها شطرا من حياته. وقد تمكن هناك من تأسيس مدرسة علمية رصينة، تَخَرَّج منها كوكبة من المؤرخين المشهورين منهم ا.د. إبراهيم بوتشيش، ا.د. أحمد الطاهري، د. بوبة مجاني وغيرهم.

ومع أوائل الثمانينيات من القرن العشرين عاد مؤرخنا بعد غيبة طويلة إلى مصر ليواصل رحلة الفكر والإبداع في الحياة الثقافية العربية، التي لم يتوقف فيها عند حد الكتابة التاريخية بل تعداها إلى مشروعه الفكري الكبير "سسيولوجيا الفكر الإسلامي" ثم تحول بعد هذا المشروع إلى رؤيته لما وراء التاريخ وبدأ في إنتاج سلسلة من الكتب الثقافية، التي تعالج قضايا فكرية تشغل بال طبقة المثقفين وأصحاب الرأي والفكر في مصر والعالم العربي، فقد تحول ليقدم رؤيته للخطاب الديني المعاصر في مصر، ورؤيته لكثير من مشاكل الوطن العربي عامة ومصر خاصة وتحديدا الثقافية منها. وفي هذا الإطار فقد دعي لكثير من المؤتمرات والندوات العامة، الرسمية والأهلية، ليدلي بدلوه في قضايا الفكر المعاصر، سواء في المجلس الأعلى للثقافة بمصر أو ندوات معرض القاهرة للكتاب أو غيرها من المنتديات الفكرية. ومن هنا يمكن القول أن محمود إسماعيل ليس مؤرخا عاديا ركب عربة التاريخ وصار يتوقف في محطاته، بل على العكس تنقل بين مناح الفكر والثقافة بكل أشكالها، حتى أصبح له إنتاجا فكريا وتاريخيا وأدبيا. وربما ما لا يعرفه البعض أن محمود إسماعيل أديب أيضا، ويعرف هذه الصفة عنه المقربون منه، فله بعض القصص الأدبية والدواوين الشعرية.

أما محمود إسماعيل الإنسان فلا يقل عن محمود إسماعيل المؤرخ، والأديب، والمفكر، ولا يستطيع أن ينكر أفضاله كل من تعامل معه، اللهم إلا قلة من المعروفين للجميع؛ فكم من التلاميذ خَرَّج حتى صاروا أساتذة الآن، وكم من ذوي الحاجة قضى حاجتهم، وكم من المساعدات العلمية قدمها في السر والعلن. لقد كان كريما بمعنى الكلمة مع كل من طرق بابه، سواء باب منزله أو باب مدرسته، ولا يتسع المقام هنا لذكر عدد من الأمثلة. أما عن جرأته في الحق فَحَدّث ولا حرج، الأمر الذي يعكس نشأته الصحيحة وعزة نفسه وثقته المطلقة في القضاء والقدر، فلم نره يوما يدفن رأسه في الرمال إزاء بعض القضايا الساخنة في مجلس قسم التاريخ، أو في المجلس الأعلى للثقافة أو لجنة الترقيات أو الندوات والمنتديات

العامة. فكثيرا ما جهر بآراء لو لم يكن قائلها محمود إسماعيل لما قالها آخر غيره. وفي هذا المقام نذكر أننا حضرنا له ندوة حول "تجديد الخطاب الديني" في معرض الكتاب بالقاهرة عام ٢٠٠٥ وتخلف عن الجلسة منظموها، ربما خشية من جرأته في الرأي، فيؤخذون بذنبه. فما كان من الرجل الجريء إلا أن أدار بنفسه ولنفسه الندوة المقررة له، وكانت ساخنة كالعادة، بسبب أرائه التي طالت بعض مؤسساتنا العتيقة؛ وصحبنا عقب انتهاء الندوة نتجول في معرض الكتاب وكنا كلما احتجنا كتابا من مؤلفاته منحنا إياه ودفع هو ثمنه للناشر، حتى عدنا وكل منا يحمل حقيبة ممتلئة ببعض من مؤلفاته الفكرية. وصرنا نتعجب من هذا الرجل الذي كلما قابلناه أو جلسنا معه وجدناه شابا ينبض بالحيوية لا يكل ولا يمل من التفكير والكتابة، وتحسرنا على بعض الزملاء ممن يقضون وقتهم في المهاترات والفتن من أجل سراب يبرق في أعينهم فقط.

وإذا تناولنا مراحل عمر ا.د. محمود إسماعيل الفكرية سنجد أنها تباينت من مرحلة إلى أخرى. بيد أن المرحلة الأكثر إبداعا في حياته كانت فترة الخمسينيات والستينيات من عمره، والتي تنقل فيها بين مروج الثقافة، لم يقتصر فيها على الكتابة التاريخية التقليدية فحسب بل تعداها إلى تفسير ما وراء التاريخ. وإذا حاولنا إحصاء أبحاثه ومؤلفاته لن يحالفنا النجاح لكثرتها وانتشارها في معظم أنحاء الوطن العربي، ولهذا كان سيادته مرجعنا في هذا الأمر.

فمن حيث الأبحاث التاريخية والحضارية له أكثر من سبعين بحثا ودراسة ألقاها في مؤتمرات وندوات محلية ودولية، ومنشورة في عدد كبير من الدوريات والمجلات الثقافية العربية مثل مجلات الكاتب، الطليعة، الفكر المعاصر، الموقف العربي، أدب ونقد، المحيط الثقافي، الهلال، المنار، العصور الجديدة، المجلة التاريخية، حوليات آداب عين شمس، حوليات جامعة الكويت، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المؤرخ العربي العراقية، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط وغيرها.

أما عن الندوات والمؤتمرات فقد شارك في عدد كبير من المؤتمرات المصرية والعربية والعالمية تزيد على السبعين. كما نشر عددا كبيرا من المقالات الصحفية في الصحف المصرية والعربية مثل جريدة الجمهورية، المساء، الأخبار، الأهالي، صوت العرب، العربي، القاهرة؛ وكذلك في صحف المحرر والبيان والأحداث المغربية. هذا، بالإضافة إلى الحوارات الصحفية المنشورة في عدد كبير من الصحف والمجلات المصرية والعربية.

أما عن الكتب التاريخية والثقافية التي ألفها فتقرب من تسعة وثلاثين كتابا، على النحو التالي:

١. الأغالبة، سياستهم الخارجية، القاهرة.
٢. الخوارج في بلاد المغرب، القاهرة، ١٩٨٥.
٣. الحركات السرية في الإسلام.
٤. قضايا في التاريخ الإسلامي، المغرب.
٥. مغربيات.
٦. فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية.
٧. مقالات في الفكر والتاريخ.
٨. الأدارسة في المغرب الأقصى.
٩. تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.
١٠. الإسلام السياسي.
١١. الخطاب الأصولي المعاصر.
١٢. فرق الشيعة بين الدين والسياسة.
١٣. دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي.
١٤. إخوان الصفا، المنصورة.
١٥. نهاية أسطورة–نظريان ابن خلدون مقتبسة من إخوان الصفا، القاهرة.
١٦. هل انتهت أسطورة ابن خلدون؟
١٧. الخطاب الديني المعاصر بين التقليد والتجديد، القاهرة.
١٨. مقاربات نقدية في الفكر والأدب.
١٩. إشكالية المنهج في دراسة التراث، القاهرة.
٢٠. المهمشون في التاريخ الإسلامي، القاهرة.
٢١. التراث وقضايا العصر.
٢٢. في نقد حوار المشرق والمغرب، القاهرة.
٢٣. الفكر الديني الحديث بين السلفيين والمجددين، القاهرة.
٢٤. الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي.
٢٥. الإقطاع في العالم الإسلامي.
٢٦. قراءات نقدية في الفكر العربي المعاصر.

٢٧.العروبة والإسلام–بين أكاذيب المرجفين وحقائق المنصفين.
٢٨.الخلافة الإسلامية بين الفكر والتاريخ.
٢٩.أراء ورؤى في الفكر والتاريخ والفن والأدب.
٣٠.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–طور التكوين.
٣١.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–طور الازدهار–الخلفية السوسيو– تاريخية.
٣٢.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–طور الازدهار–العلوم والآداب والفنون.
٣٣.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–طور الازدهار–فكر الفرق، علم الكلام، الفلسفة، التصوف.
٣٤.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–طور الازدهار–الفكر التاريخي.
٣٥.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–طور الانهيار–الخلفية السوسيو– تاريخية.
٣٦.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–طور الانهيار–العلوم والآداب والفنون.
٣٧.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–طور الانهيار–الفلسفة والتصوف.
٣٨.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–طور الانهيار–الفكر التاريخي.
٣٩.سوسيولوجيا الفكر الإسلامي–محاولة التنظير.
٤٠.حقق الجزء الثاني من مذكرات محمد فريد التي صدرت بمجلة الكاتب المصرية الاشتراك مع مركز دراسات تاريخ مصر المعاصرة.

ويضاف إلى هذا الكم الغزير لعالمنا الفاضل، الذي يشير إلى أنه استثمر عمره في رحلة تنوير جريئة، لم ينس حظه من الأدب والشعر، وبهذا عاد بنا على عصر الخليفة المأمون، عندما كان العالم أو المؤرخ العربي يجيد أكثر من صنعة من صنائع الكتابة. فله عدد من الدواوين الشعرية والمجموعات القصصية منها:

١. أحزان القلب والوطن (ديوان شعر)
٢. مقاطع من سفر العودة (ديوان شعر)
٣. الزمن الآتي (ديوان شعر)
٤. ثغرة في جدار الوهم (مجموعة قصصية)
٥. الحب بين ابن حزم وابن داوود الأصفهاني.

والى جانب هذا النشاط الفكري الواسع المتشعب، شارك في الكثير من المشروعات الفكرية والثقافية في الوطن العربي.

- ففي مصر أشرف على مشروع صورة الإسلام في الكتابات الغربية المعتدلة، مركز دراسة الحضارات المعاصرة، جامعة عين شمس.
- شارك في كثير من الندوات الثقافية في مراكز حقوق الإنسان في مصر.
- شارك في التأسيس الأكاديمي لكلية العلوم الاجتماعية والدراسات الإنسانية بجامعة الكويت.
- شارك في تأسيس نظام التكوين للدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس– المغرب.
- شارك في تأسيس مركز دراسات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس–المغرب.
- شارك في الإعداد لكثير من الندوات والمؤتمرات العلمية بجامعات مصر والكويت والمغرب.
- شارك في تحكيم الإنتاج العلمي للمتقدمين للجوائز العلمية العربية والعلمية كجائز الملك فيصل وغيرها.

ونظرا لهذا الاتساع الفكري الذي يتميز به عالمنا الجليل، وتمكنه من تبوء مكانة فكرية متميزة في ساحة الثقافة العربية فقد اختير عضوا في عدد من اللجان الثقافية وهيئات تحرير بعض الدوريات، حسبما يلي:

- عضو في هيئة تحرير مجلات العصور الجديدة، الفجر، الكاتب المصرية.
- رئيس تحرير مجلة التاريخ الإسلامي والوسيط، يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، جامعة عين شمس، القاهرة.
- عضو في هيئة تحرير حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس.
- عضو في هيئة تحرير حوليات الآداب، جامعة الكويت.
- عضو لجنة التاريخ والآثار، المجلس الأعلى للثقافة بمصر.
- عضو لجنة الترقيات الخاصة بالتاريخ في الجامعات المصرية.
- عضو لجان التحكيم في الكثير من الجامعات العربية.
- عضو باتحاد المؤرخين العرب، والجمعية التاريخية المصرية، والجمعية الفلسفية المصرية، والجمعية المغربية للتاريخ والآثار.
- مستشارا ثقافيا لمنظمة الفجر لحقوق الإنسان.
- مستشارا لدار "رؤية" للنشر بجمهورية مصر العربية.

أما عن النشاط الأكاديمي لسيادته فيتسم بالتنوع والغزارة حيث أشرف على ما يزيد عن خمسين رسالة ما بين ماجستير ودكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعات عين شمس ومحمد بن عبد الله بفاس بالمغرب، والمولى إسماعيل بمكناس بالمغرب، وقسطنطينة بالجزائر. كما ناقش عددا كبيرا من الرسائل الجامعية في معظم جامعات مصر والمغرب والكويت.

وهكذا، فإن محمود إسماعيل ليس باحثا أو مؤرخا فحسب بل يحسب أيضا ضمن زمرة المفكرين والمثقفين رفيعي المستوى، وكذلك واحدا من الأدباء والشعراء، الذين يكتبون الشعر، بغية الرضا عن النفس والشعور بنشوة القلم عندما يتنزه بين مروج الثقافة والفكر الإنساني. ومن أجل هذا فقد آثر العزوف عن المناصب الإدارية التي جاءته تسعى، فأوصد بابه في وجهها حتى لا تفرق رياح الإدارة أفكاره وتشتتها.

وفي الختام لا نملك نحن أبناؤه وزملاؤه بقسم التاريخ بجامعة عين شمس إلا أن نقدم له باقة حب ووفاء مصحوبة بالدعاء له بطول العمر بمناسبة عيد ميلاده الخامس والستين.